بيد أن "نيكولسكو – يستخدم البادئة اللاتينية – Trans، استخدامًا مراوغًا، وحسب لالاند – Laland: "فإن – Trans وتعني "عبر" (من خلال، فيما يتعدى) بادئة كثيرة الاستعمال لدى الفلاسفة المعاصرين، لابتكار ألفاظ جديدة تقابل مفهومًا بما يتعداه ويتخطاه، وهذا التخطي يمكن فهمه، من جهة أخرى، بمعان شتى"(٧).

وتشير هذه اللفظة عند نيكولسكو إلى ما هو في آن معًا: بين المناهج وعبرها، وفيما يتعدى كل منها على حدة، وغايتها فهم العالم الحاضر، الذي صار فيه توحيد المعرفة الإنسانية إلزامًا يتاخم الضرورة القدرية، وعليه تتوقف نجاة الإنسانية كنوع.

كما أنه يميز بين المعاني التالية: تجاوز" و "خرق" و "عبر" و"من خلال"، ويربط بينها جميعًا في الوقت نفسه، كدلالات متواشجة للفظة – Trans. وعلى سبيل المثال، يستخدم كلمة "خرق" Trans " بالمعنى القانوني والحقوقي عند المشرعين، والتي تشير إلى انتهاك القانون أو النظام، وكأن – Transdisciplinarity تعادل خرقًا معممًا لفتح فضاء غير محدود من الحرية والمعرفة.

وحسب تعبيرنيكولسكو فإن: العبر مناهجية ما كان له أن يتم إلا بفضل وجود المناهج أولاً، وأن البشرية احتاجت قرونًا حتى تراكم من المعارف والمناهج ما يكفي حتى تجتازها" ... وفي موضع آخر يقول: "إنها علم وفن اكتشاف" المعابر" بين الكائنات والأشياء".(٨)

أولاً: تمفصل المناهج وأزمة العلوم الإنسانية:

لا ينفصل تاريخ المعرفة عن المعرفة نفسها. ويشير تاريخ المعرفة إلى أن الحقول المتخصصة من المعرفة Disciplines، أو فروع العلم المختلفة، لم تكن متمايزة كما هو الحال اليوم، إذ كانت أغصانًا في شجرة الفلسفة، وظلت الفلسفة والعلم (المعرفة) مفهومين متداخلين لفترة طويلة. وعندما تمايزت الحقول المعرفية عن الفلسفة بقي لكل علم منها بعد فلسفي يتعلق بطبيعة العلم وبمنهجه وأساليب التحليل النقدي للمعرفة الخاصة به، مثلما بقي لكل علم منها بعد تاريخي يتعلق ببدء المعرفة المتخصصة فيه وجذورها ونشأتها وتطورها.

بيد أن ثمة تداخلاً ظاهرًا بين فلسفة أي علم وتاريخه، وأن هناك علاقة عامة بين المعرفة إجمالاً وتاريخها، وحسب "لاكاتوش": فإن فلسفة العلم دون تاريخه فارغة، وتاريخ العلم دون فلسفة أعمى"[٩]

ومنذ اليونان القديم، برزت الحاجة إلى تمييز الطبيعة عن النشاطات الإنسانية المختلفة التي تستند على المعرفة، واقترح أرسطو التمييز بين ثلاثة منها: العلوم العملية، العلوم الشعرية، والعلوم النظرية (الرياضيات، الطبيعيات، الإلهيات).

وفي العصر الوسيط، شكلت الفروع المختلفة للمعرفة "الفنون الحرة السبعة" الموزعة بين الرباعي Quadrivium (العلمي) الذي يشتمل على: الهندسة والحساب والفلك والموسيقى، التي تأسست على العدد والكم. والثلاثي – Trivium (الأدبي) الذي يضم: النحو والبلاغة والجدل، الذي تأسس على المنطق الصوري.

وفي بداية القرن السابع عشر، في الوقت الذي ولد فيه العلم الحديث، أكد "فرنسيس بيكون" Bacon (1561 – 1626) في كتابه "تقدم المعرفة" ضرورة "دراسة الخصائص العامة للمعرفة ووصفها، على غرار ما فعله الكثيرون من وحدة الطبيعة وخصائص الدولة الدينية والمدنية على السواء. ودون الاتجاه لدراسة المعرفة ووحدتها، يظل تاريخ العالم أشبه بتمثال "بوليفيموس" ذي العين الواحدة، لأنه لا غنى عن هذا الجانب من التاريخ الذي يكشف عن روح الإنسان وحياته"[١٠].

ونادى "ديكارت" Descartes (1596 – 1650) بطريقة جديدة "للبحث عن الحقيقة في العلوم"، في كتابه "المقال في المنهج" عام ١٦٣٧، وعنوانه الكامل هو: "مقال في المنهج وفقًا للأصول (المبادئ) التي تقود العقل للبحث عن الحقيقة في العلوم"، قبل أن يتم استخدام تقنيات الاستقصاء بإتقان، وهذه الطريقة هي التي مهدت الطريق لاستقلال المناهج العلمية.

ففي هذا الكتاب، ذكر القواعد الأربعة التي ينبغي اتباعها، ثم أعاد طرحها في صور أخرى في معظم مؤلفاته.

القاعدة الأولى هي: "عدم قبول ما هو أكثر مما تبين لعقلي على نحو واضح ومتمايز، بحيث لا يكون باستطاعتي الشك فيه". والقاعدة الثانية هي: – "أن أقسِّم كل مشكلة من المشكلات التي تواجهني إلى أجزاء متعددة بالقدر الذي بدا ضروريًّا حتى يمكن حلها على أفضل نحو ممكن". والقاعدة الثالثة هي: "أن أواصل بحثي بدءًا بالموضوعات التي تتسم بشدة بساطتها وسهولة فهمها حتى أستطيع شيئًا فشيئًا الاهتداء إلى معرفة ما هو أشد تركيبًا". والقاعدة الرابعة: "أن أقوم في النهاية بحساب المسألة ومراجعتها مراجعة وافية حتى أتيقن من عدم إغفالي لأي شيء".(١١)

هكذا تبدو العلاقة وثيقة بين هذا المنهج الديكارتي والمنهج المتبع في الهندسة خصوصًا. والفكرة الأساسية فيه هي "الوضوح والتمايز"، إذ إن على الباحث الذي يتبع هذا المنهج أن يقتصر منذ بداية بحثه على الأشياء التي يدركها بـ "وضوح وتمايز".

إلا أن فلسفة ديكارت أدت إلى فصل "الذات" – Subjective – عن "الموضوع –Objective–، الإنسان والطبيعة، العقل والجسم. وهذه "الثنائية" Dualism أدت إلى أمر خطير، هو الانفصال الكلي بين الذات العارفة والواقع الذي يفترض أنه مستقل استقلالاً تامًّا عن الذات التي ترصده.

وكان لابد من انتظار القرن التاسع عشر حتى تطرح مشكلة العلاقة بين الذات العارفة وموضوع المعرفة من جهة أخرى؛ إذ تزامن النمو المطرد والمتعاظم للمعارف والعلوم والمناهج في الغرب، مع التفتت المتواصل والمتسارع لمختلف فعاليات وأنشطة الحضارة الإنسانية. فعلى امتداد تلك الفترة: "تصدع الكومنولث الأوروبي، وانقسم إلى وحدات قومية محمومة الوعي بالذات، وعجزت الأمم نفسها عن تحقيق الوحدة، وبالمثل جنحت أقسام المعرفة إلى التشتت في أنحاء مختلفة، ولم يتوافر لأي "علم" واحد القوة الكافية التي تساعده على لم شمل بقية العلوم. فقد (فَقَد) اللاهوت منذ أمد بعيد (العصر الوسيط) قدرته على القيام بذلك، وتنازلت الفلسفة (الميتافيزيقا) عن بقاع من أرضها إلى العلوم الجديدة، بل وانقسم العلم ذاته إلى علوم.

وتوقف الفكر السياسي والتاريخي أيضًا عن التحدث بلغة الكليات وأصبح أكثر تخصصًا، وأكثر عناية بالفردي والجزئي من عنايته بالقوانين العامة، وإن اكتسب الكثير من الأهمية والمكانة"(١٢).

واقترح الكثيرون حلولاً للانفجار المناهجي الكبير مثل "أندريه أمبير" و"هربرت سبنسر"، لكن حل "أوجست كونت" كان ناجعًا، وإليه ينسب الفضل في مفصلة المناهج بعضها مع بعض على نحو خطي، بدءًا من الرياضيات حتى علم الاجتماع، مرورًا بالفلك والفيزياء والكيمياء والبيولوجيا والفسيولوجيا وعلم النفس، بحيث يتأسس كل منها على القوانين الرئيسية للمنهج السابق، ويكون في آن معًا أساسًا للمنهج اللاحق.

في هذا التصنيف، كانت درجة عمومية كل منهج تتناقص نزولاً من الرياضيات إلى علم الاجتماع، بينما تتزايد درجة تعقيده. وبذلك اختصت الرياضيات بمنزلة راجحة. ثم جاء أوغسطين كورنو فأغنى رؤية كونت بأن أضفى عليها المنظور التاريخي الذي يتعاظم أهمية من الرياضيات إلى العلوم الإنسانية.

أما "فيلهلم دلتاي" Dilthey (1911 – 1830) فهو أول من حاول ردم الهوة بين الذات والموضوع، بين الذات العارفة وموضوع المعرفة، في الوقت الذي بلغت فيه "الوضعية" Positivism ذروة عنفوانها، ونادى أبرز دعاتها بأن الخلاص الوحيد لتأخر العلوم الإنسانية عن العلوم الطبيعية يكمن في ضرورة تطبيق المنهج التجريبي نفسه للعلوم الطبيعية عليها؛ سعيًا للوصول إلى قوانين كلية يقينية، وتجنبًا للذاتية وعدم الدقة.

وروج دعاتها إلى أن كلاً منهما يخضع للمعايير المنهجية نفسها من الاستدلال والشرح، على اعتبار أن الحقائق الاجتماعية مثلها مثل الحقائق الطبيعية، واقعية وعملية، ويمكن بالمثل قياسها"[١٣].

وهو ما عبر عنه "جون ستيوارت مل" Mill (1873 – 1806) بقوله: "إذا كان علينا أن نهرب من الفشل المحتم للعلوم الاجتماعية بمقارنتها بالتقدم المستمر للعلوم الطبيعية، فإن أملنا الوحيد يتمثل في تعميم المناهج التي أثبتت نجاحها في العلوم الطبيعية لجعلها مناسبة للاستخدام في العلوم الاجتماعية"[١٤].

وسط هذا المناخ المشحون بـ "العلومية" أو "التعالمية" –Scientisme[١٥] خاض "دلتاي" أهم معركة لتوطيد استقلال العلوم الاجتماعية بصفة خاصة،

والإنسانية بشكل عام، بالتفرقة بينها وبين العلوم الطبيعية، وفي الرد على دعاة الوضعية الذين وحدوا بينهما على الأقل من ناحية المنهج.

جعل دلتاي الصدارة للتاريخ بين العلوم الفكرية Geistewissen كما جعل العقل البشري وأفكاره الفيصل في مسائل التاريخ. فالإنسان عنده كائن تاريخي بمعنى أن الإنسان يفهم نفسه، لا من خلال التأمل العقلي، وإنما من خلال التجارب الموضوعية للحياة. إن ماهية الإنسان وإرادته ليست أشياء محددة سلفًا، وهو ليس مشروعًا جاهزًا مصممًا من قبل، ولكنه مشروع في حالة تخلق. إنه يفهم نفسه بطريق غير مباشر، عن طريق القيام بجولة "تأويلية" من خلال التعبيرات الثابتة التي تنتمي للماضي، وبهذا المعنى فهو كائن تاريخي.

وعلى ذلك فالتاريخ ليس معطى موضوعيًا في الماضي، قائمًا هناك، ولكنه معطى متغير. "إننا نفهم الماضي في كل عصر فهمًا جديدًا من خلال التعبيرات الباقية لنا، ويكون فهمنا للماضي أفضل كلما توافرت شروط موضوعية في الحاضر شبيهة بما كان في الماضي"(١٦).

هكذا وطَّد دلتاي أولية التجربة الجوانية كأساس لفهم التاريخ، يقول: "إن قدرة حياتنا واتساعها، وحيوية انعكاس تفكيرنا عليها، هما أساس الرؤيا التاريخية، إنها وحدها تمكننا من أن نعطي حياة أخرى لظلال الماضي الناضبة"(١٧).

"إن العلوم الاجتماعية تقوم على أساس مختلف عن الأساس الذي تستند إليه العلوم الطبيعية، فالفارق بينهما يكمن في أن مادة العلوم الاجتماعية، وهي العقول البشرية، مادة معطاة وليست مشتقة من أي شيء خارجها، مثل مادة العلوم الطبيعية التي هي مشتقة من الطبيعة، ومن ثم فعلى العالم الاجتماعي أن يجد مفتاحه في "ذاته" وليس خارجها"(١٨).

والمحلل المتعمق يجد أن العلوم الطبيعية تبحث عن غايات مجردة، بينما تبحث العلوم الاجتماعية عن فهم آنٍ من خلال النظر في مادتها الخام. إن الإدراك الفني والإنساني هما غاية العلوم الاجتماعية، وهذان يمكن الوصول إليهما من خلال التحديد الدقيق للقيم والمعاني التي ندرسها في عقول الفاعلين

الاجتماعيين، وليس من خلال مناهج العلوم الطبيعية، وهذه هي عملية الفهم الذاتي أو التفسير، ونصل إلى هذا الفهم من خلال "العيش مرة أخرى – Reliving" في الأحداث الاجتماعية، بذلك رد دلتاي الفشل الذي تعانيه العلوم الاجتماعية إلى أن "دراستها وتقييمها لم تقم على أساس من الصلة بتحليل حقائق الوعي، وبالتالي لم تكن مؤسسة على معرفة يقينية هي ملاذها الأخير. لم يكن لديها، باختصار أساس فلسفي، ولم تنشأ بينها وبين نظرية المعرفة علاقة صحيحة، ولهذا فشلت في تطوير منهجها[١٩].

تلك هي نقطة البدء، فتحليل حقائق الوعي هو مركز اهتمام الدراسات الإنسانية بشكل عام، ومن خلالها نستطيع تشكيل استقلالها الذاتي عن العلوم الطبيعية، ومن ثم فإنها هي التي تستطيع – وحدها – أن تزودنا بوسيلة أفضل لإدراك الحقائق التاريخية والاجتماعية، ومعرفة الطبيعة البشرية.

وعلى ذلك، فإذا كانت "الموضوعية" Objectivitism تميل إلى افتراض موضوع "متميز عن الذات"، فإنه – مع دلتاي – أصبحت هناك علاقة وثيقة بين "الذات" و "الموضوع". فالموضوع لا يظهر للذات إلا حين يكون اهتمامها متركزًا خلال الممارسة عليه. إن الحقيقة في الميدان الاجتماعي بشكل خاص ليست مجرد تطابق بسيط بين الفكر والوجود، ولكنها تصطبغ باهتمام الباحث بمادة موضوعه، وبوجهة نظره، وبتقييماته، وباختصار إنها تصطبغ بتعريفه للغاية من اهتمامه. ومن هنا فإن الملاحظ في الميدان الاجتماعي جزء من الشيء الملاحظ، وله نصيب شخصي في موضوع الملاحظة، وهذه الحقيقة هي واحد من العوامل الرئيسية التي تجعل مشكلة "الموضوعية"، التي جاءت بها الفيزياء الكلاسيكية، في العلوم الاجتماعية أمرًا شديد الحدة.

وبناء عليه، فإن ثمة تميزًا ذا أساس قوي بين الحقائق الموضوعية والحقائق الذاتية، وهذا التميز ناجم عن الفرق بين الملاحظة الخارجية والداخلية أو حسب تعبير "وليم چيمس" James، بين معرفتنا عن الأشياء Knowing about، ومعرفتنا الشخصية بها Acquaintance with.

وإذا كان ثمة فرق بين العمليات المادية والعقلية، فإن هذا يوحي بوجود فرق مماثل في نمط التعرف على هذين النوعين من الظواهر. إن الأشياء

المادية يمكن أن تعرف فقط من الخارج، بينما لا يمكن التعرف على العمليات العقلية والاجتماعية إلا من الداخل، ومن هنا يمكن اعتبار "الاستبصار" Insight قلب المعرفة الاجتماعية. ويمكن التوصل إليه بواسطة التغلغل إلى داخل الظاهرة التي هي موضوع الملاحظة، أو كما قال "كولي" C. H. Cooley بواسطة "الاستبطان" عن طريق المشاركة الوجدانية Sympathetic introspection"[٢٠].

ثانياً: ثورة البيولوجيا والفيزياء والرياضيات

غير أنه حدث تحول مهم في مجال العلوم الطبيعية خاصة في البيولوجيا. فإذا كان العلم ينير العقل ويبدد أوهامه الكثيرة حول العالم، فإننا حين نتعلم شيئًا جديدًا عن العالم وعن أنفسنا ككائنات في العالم، يتغير مضمون فهمنا الذاتي.

وقد قلب عالمان كبيران هما: "كوبرنيكوس" و"داروين"، صورة العالم التي كانت تتمركز حول الأرض وحول الإنسان، رأسًا على عقب. لكن تبديد الوهم الفلكي فيما يتعلق بمدار النجوم ترك في عالم الحياة آثار أقل مما تركه نزع الوهم البيولوجي فيما يتعلق بمكانة الإنسان في تاريخ الطبيعة. ويبدو أن المعارف العلمية تزعج فهمنا الذاتي بقدر أكبر كلما اقتربت منا، كما قال "هابرماس"[٢١].

وقد نشر "لا مارك" و"سير شارل ليل" Lyell و"روبرت تشامبرز" أعمالاً علمية رائدة خطت الخطوة الأولى تجاه التطور الكوني والعضوي، واكتسبت فكرة "التطور" أنصارًا حتى تغلغلت تقريبًا في كل مجال. هكذا طوّقت فكرة "التطور" الإنسان نفسه، الذي كان حتى ذلك العهد معفيًا من الاشتراك في عملية التطور. وما يهمنا في هذا الصدد هو أن إدخال الإنسان في برنامج التطور، أحدث ثورة معرفية شاملة يدين لها عصرنا إلى الآن "إذ انمحى الخط الذي كان يفصل بصورة واضحة بين العلوم الطبيعية من جهة، والعلوم الإنسانية من جهة أخرى، فبات يجب اعتبار الكون أو المنظومة الشمسية بكاملها على الأقل خاضعًا بصيرورة دائمة وباتت هذه الصيرورة تشمل كل شيء حي وكل الوجود."[٢٢]

obeikandl.com